د . طه وادي

التذوق الفني للأدب

(دراسة تطبيقية)

قبل ان نتعرف على عملية التذوق الفني للادب نتساءل في البداية عن ماهية الادب ؟ . وحين ندخل في اطار التقنين والتعريف تبدو العملية صعبة معقدة ـ وان بدت بالامثلة والتعرف العيني سهلة بسيطة ـ ذلك انه في اطار الدراسات والعلاقات الانسانية مفاهيم ومواضعات ، يسهل التعرف عليها ويصعب تعريفها ، بمعنى انه يمكن بسهولة التعرف على (الادب) من تذكر بعض انواعه واشكاله ابتداء من : الاسطورة والملحمة ومرورا بالمسرح والشعر والسيرة والقصة والرواية وانتهاء بالموال والمثل الشعبيين .

كل هذه الانواع (على الرغم من تعدد اشكالها وتطورها ، وخضوع بعضها لتطور اشبه بعملية النشوء والارتقاء كما حددها علميا داروين) ادب .. نص لغوي يمثل تجربة انسانية . ولنتامل هذه الحقيقة في ضوء نصين بينهما في الفكر والزمان والمكان حدود وفواصل لا يمكن تصورها ، بل ان الاول فيهما (موال) شعبي مصري مجهول القائل. والثاني رواية للكاتب الامريكي « ارنست همنجواي » (١٨٩٩ ـ ١٩٦١)م بعنوان : « العجوز والبحر » (١٩٥٤ م) .

اما الموال : فيستعطف فيه حبيب محبوبه حتى يرق له ، ويبتسم في وجهه حتى لا « يدبل » كالورد . وهو مخلص في حبه موحد في محبوبه يقسم له بالنبي ـ في روة عاطفية يشع منها ايمان صوفي ـ انه لن ينظر لغيره ولو كان « قمرا » :

سابق عليك النبي ان كنت باقيني
تضحك بسن الرضا ساعة تلاقيني
ياللي انا الورد ـ يا حلو ـ وانت الميّة تروّيني
ان غبت دبلتني وان جيت بتحييني
وسر تربة نبي احمد شهر ديني
ان كان غيرك قمر ما تنظره عيني (١) .

التعبير الفني هنا ـ على بساطته وشعبيته ـ يمثل موقفا انسانيا يهز الوجدان ويستثير المشاعر .

وتمثل رواية « همنجواي » موقفا انسانيا من زاوية اخرى ، اذ تصور صراع عجوز مع الانواء وقسوة الطبيعة ، اصطاد سمكة بعد طول جوع وتعب ، ولكنه يعود بعد هذا مهدود الحيل والعزيمة ،اكثر من هذا ان السمكة التي صارع من اجلها لم يعد منها الا بالرأس وعظم الظهر فقط ،على الرغم من هذا نحس ان الرواية تقول معاني انسانية لا حد لها ، من ذلك حديث العجوز للسمكة او لما بقي منها :

« يا نصف السمكة .. يا من كنت سمكة ، انني آسف اذ اوغلت في البحر . لقد حطمتك وحطّمت نفسي ، ولكننا صرعنا قروشا كثيرة .. أنت وأنا .. الا قولي : كم سمكة قتلت في حياتك ايتها السمكة العجوز ؟ ان هذا الرمح في رأفتك لم يخلق عبثا (٢) » .

وتنتهي الرواية برقدة العجوز خائرا على الشاطيء بينما الغلام الصغير ـ رمز الامل المتجدد ـ قائم الى جواره . ونلحظ ان (القيمة) الفكرية تعكس موقفا انسانيا عاما ـ على الرغم من واحدية البطل الذي يعد رمزا لكفاح الانسان ضد قوى القبر المحيطة به .

وتمثل قدرة الانسان الدائمة على التحدي والتمسك بالامل ، اذ « ان التعلق بالامل .. شيء اجمل من ان يتحقق . »

بعد هذا نستطيع القول :

ان الادب فن يقدم تجربة ـ تفصح عن موقف انساني ـ ويكون حدوده (الادب) على قدر قربه من حياة البشر والتحامه بوجدانهم ، وتعبيره عما يمكن ان يمس ذواتهم الانسانية . على ان ما ينبغي ان نلحظه بالنسبة للادب انه يقدم المعرفة او التجربة الانسانية بوسيلة خاصة هي (اللغة) بعد ان ينقلها الفنان من بعدها الاشاري التقريري الى بعد اعمق لتعبر بالصورة والرمز .

بعد ان تتم للادب عملية (الخلق) يظل دوما في حاجة الى متذوق واع (يعيد) في ذهنه بناء التجربة الادبية ويكتشف ابعادها. بهذا الجدل الفني المتبادل ـ يحيا الادب ويخلد ويصبح تراثا يثري الفكر ويعمق احساس البشر بذواتهم وواقعهم وحياتهم . وما نتساءل عنه الان هو:

ما الخطوات التي ينبغي ان يقوم بها (المتلقي) حتى يستطيع ان يعيد تشكيل التجربة الادبية ، ويكشف لنفسه او للاخرين ابعادها الفكرية والفنية ؟

سنحاول ان نجيب عن هذا التساؤل من خلال مناقشة قصيدة :

غريب عن الخليج

للشاعر العراقي : بدر شاكر السياب (٣)

واول ما ينبغي عمله ـ هنا ـ هو محاولة التعرف على (الاطار الاجتماعي) الذي كتب الشاعر في ظله القصيدة ، حتى يساعدنا ذلك على تبصر موقف الشاعر وادراك عمق التجربة التي يقدمها . عاصر السياب (١٩٢٦ ـ ١٩٦٤ م) في شبابه مرحلة سيئة من تاريخ وطنه

المثقل بسلبيات الاحتلال الانجليزي والحكومات شبه العميلة ، وما صاحب ذلك من انحطاط اجتماعي واختلال في العلاقات الانسانية . من هنا كان وعيه بأن تكون الكلمة لديه (معبرا) للدفاع عن وطنه وشعبه ، لذلك فاومه الحكام فلم يجد وسيلة الا الهرب الى الكويت حيث عمل مدرسا . وعلى الرغم من هذه (الغربة)المادية ظلت روحه تحوم حول الوطن ونفسه مؤرقة بهمومه ، لذلك نجده يصرخ في القصيدة قائلا :

واحسرتاه متى أنام
فأحس ان على الوسادة
من ليلك الصيفي طلا فيه عطرك يا عراق
بين القرى المتهيبات خطاي والمدن الغريبة
غنّيت تربتك الحبيبة
وحملتها .. فانا المسيح يجرّ في المنفى صليبه

هكذا نصل الى انه بدون معرفة الاطار الاجتماعي المسبب لغربة الشاعر لا يتم المتذوق ـ فيما نرى ـ الوعي الكامل بابعاد النص الفكرية والشعورية . على ان ما ينبغي التحذير منه هنا ـ ان الفن ليس انعكاسا (ميكانيكيا) للواقع ، او رصدا (آليا) له . ان الفن نشاط انساني ، وحين يبدعه الاديب فانه يكون على درجة كبيرةمن الوعي ، ويقوم بعمليات لا حصر لها عند تشكيل التجربة ، ان رؤيته (الشاملة) للواقع تجعله يلم شعث ما تبعثر ويؤلف بين ما تفرق، مبصرا المحور الاساسي لازمة (الانسان) في مجتمعه . من هنا فان تجربته وان كانت تجربة (الذات) المفردة ـ خاصة في مجال الشعر الغنائي ـ فان الذات هنا ، ليست هي الذات المريضة (المنسلخة) عن واقعها العام ، انما هي الذات (الملتحمة) بضمير الجماعة . من هنا يخرج الفن من اطار (المحتمل) الى اطار (الممكن) كما يقول « ارسطو » . وتصبح تجربة (الذات) تجربة انسانية عامة . وهذا ما نحسه في قصيدة السياب ، اذ تعبر ـ بصدق ـ عن انسان العصر الحديث المغترب :

بين العيون الاجنبية
بين احتقار وانتهار .. او « خطية »
والموت أهون من خطية
من ذلك الاشفاق تعصره العيون الاجنبية
قطرات ماء .. معدنية
فلتنطفيء يا انت ، يا قطرات ، يا دم ، يا .. نقود
يا ريح .. يا ريح .. يا ابرا تخيط لي الشراع ـ متىاعود
الى العراق ؟ متى اعود

نستطيع القول اذن : انه من خلال انصهار (الانا) ـ بـ(النحن) واتحاد (الذات) بـ (الموضوع) لا تعبر التجربة عن واقعها (المحلي) فحسب،بل تعبر عن واقع (انساني عام)، لان الادب لا يصبح (عالميا) الا اذا كان مخضبا بسمات (الواقع الخاص) الذي يعبر عنه .

المرحلة الثانية :

التي تمكن المتذوق من ان يقيّم النص الادبي ، وان يقدر جهد الاديب فنيا ، هي ان ينظر الى (النص) على انه مرحلة او حلقة في تاريخ نوع بعينه له سمات خاصة (مميزة) استقرت في الوجدان الادبي والضمير الفكري للامة المبدعة له تحت ظل اطار حضاري خاص وهيمنة ثقافة معينة .

والنص ـ هنا ـ قصيدة شعرية ، والشعر من اهم الفنون واضخمها سعة في التراث العربي . ذلك التراث (الادبي العربي) الذي يعد من اعرق الفنون واطولها عمرا ، واكثرها امتدادا في تاريخ الحضارة الانسانية ، ومعروف ان القصيدة العربية حافظت من حيث الشكل الفني على اطار لم تكد تبرحه ـ خاصة في الادب الفصيح ـ لكن في نهاية النصف الثاني من هذا القرن هجر بعض الشعراء ـ والسياب في مقدمتهم ـ الشعر العمودي (التقليدي) الى الشعر الجديد (الحر) من هنا بدأت القصيدة تتخذ (شكلا جديدا). وينبغي ان نعرف أن (ميلاد شكل جديد للادب لا يأتي وفاقا ومصادفة وانما نسيجة لتغير ظروف اجتماعية عامة تؤدي بالضرورة الى مضمون جديد وشكل مستحدث ، لذلك يذهب الناقد السويسري « كونراد فارنر » الى ان :« الاشكال الجديدة لا تخلق فجاة ، كما انها لا تطبق بمرسوم ، ويصدق نفس الامر على المضمون الجديد . ولكن ينبغي ان يكون الامر واضحا : فالمضمون وليس الشكل هو الذي يتجدد في البداية دائما . المضمون هو الذي يولد الشكل وليس العكس ، المضمون يأتي اولا لا من حيث الاهمية فحسب ، بل ومن حيث الزمن ايضا . وذلك ينطبق على الطبيعة وعلى المجتمع وبالتاليعلىالفن.(٤)»

انطلاقا من هذا نجد القصيدة عند السياب لم تعد تفصل بين الذات والموضوع او بين الحب والوطن ، ولم تعد الموسيقى الرتيبة المتمثلة في الاوزان التقليدية والقوافي المكررة اهم الروابط العضوية في القصيدة ، بل صارت الصورة الفنية العامة للقصيدة تستوعب بطريقة (تركيبية) متلاحمة كل عناصر الفن الشعري : صوتية كانت ام تصويرية .

والجزء التالي من القصيدة يوضح كيف ان المضمون الجديد الجيد ـ الموقف الفكري الواعي ـ يؤدي بالضرورة الى (جدة) في شكل القصيدة وبناء العبارة وتشكيل الصورة . نتيجة لهذا نحس انالقصيدة ذات علاقات فكرية وخيالية جديدة باهرة ، وان الاسلوبفيه حيوية مدققة ، من هنا ندرك ان حيوية الاسلوب ليست بمعزل عن حيوية الافكار والمعاني ، وما وراء هذه الافكار والمعاني من انفعال عاطفيحيث التفاعل قائم بين الجانبين .

هذا ما نجده في هذا الجزء من القصيدة حين يرى انه على الرغم من شوقه ـ الى الحبيبة ـ فانه لن يفرح حين يلقاها الا اذا كان الملتقى على ارض الوطن .. يقول لها :

أحببت فيك عراق روحي ، أو حببتك انت فيه
يا انتما ـ مصباح روحي انتما ـ واتى المساء
والليل اطبق فلتشعا في دجاه فلا أتيه
لو جئت في البلد الغريب اليّ ما كمل اللقاء
الملتقى بك والعراق على يدي .. هو اللقاء
شوق يخض دمي اليه كأن كل دمي اشتهاء
جوع اليه .. كجوع دم الغريق الى الهواء
شوق الجنين اذا اشرأب من الجنين الى الولادة
اني لاعجب : كيف يمكن ان يخون الخائنون
أيخون انسان بلاده ؟
ان خان معنى ان يكون .. فكيف يمكن أن يكون !

المرحلة الثالثة :

تتصل بمحاولة ادراك التميز او (الفرد) الذاتي للاديب . ان ما يعنينا ونحن ندرس الادب ـ الا نغوص في التاريخ الممل لحياة الاديب او عصره او تحليل نفسيته او معرفة نوادره او علاقاته ـ فهذه امور صارت توجب الرثاء لمن يلتزم بها في تاريخ الادب او شرحالنص. يجب على دارس الادب ومتذوقه ـ على السواء ـ ان يحيى معنى دراسة الادب من حيث كونه فنا مميزا له (طبيعة خاصة) لدى كل اديب (على حدة) ، وان تشابه الجميع بالضرورة في الطابع العام . تميز الادب ـ الفن اللغوي ـ يكون لدى كل مبدع بنوع من (التفرد الخاص)في

شيئين : الاول : بطريقة (الاداء اللغوي) للعبارة ،اي كيف يبنى الجملة لغويا . ان (اللغة) هي المادة الاساسية المشكلة لوجودنا الثقافي والحضاري ، وبالضرورة هي الاساس ايضا في عملية الابداع الفني . لذلك فان لكل اديب طريقة خاصة في استخدام الكلمة وتركيب الجملة من حيث (النحو البلاغي) . ان الاديب لا يركب (الجملة) ليعبر بها عن معنى تقريري مألوف ، وانما يتعامل مع اللغة بطريقة تفجر فيها (خواص التعبير الادبي) ، وتجعل للعبارات والانساق والجمل قوة تتعدى الدلالة المباشرة ، وتنقل (الاصل) الى (المجاز) لتفي بحاجة الفن من التعبير والتصوير .وهنا نود ان نؤكد ان انفتاح الفنون على بعضها وتفاعلها بالتأثير والتأثر قد اثرى (الكلمة) : منطوقة ومكتوبة ، واعطاها قوة لم تعهد لها من قبل .

ويجب ان ندرك ان (التركيب اللغوي) للادب هو (المادةالحقيقية) المشكلة لفن الادب ، لهذا ينبغي بذل جهد كبير في التعرف على (كيفية) استخدام الاديب للغة . ويحاول (البنائيون) بذل جهد احصائي من اجل تحليل (البنية) في الظواهر اللغوية وتتبع طرائق التعامل مع الالفاظ .

والجزء التالي ـ من قصيدة السياب ـ يبين قدرة الشاعر في استخدام اللغة (فنيا) وكيف يفجر (بطريقة) تعامله معها صوره التي تترجم ـ بصدق وعفوية ـ عن مشاعره ، على الرغم من كونه يتعامل ب (قاموس) مألوف للكلمة ...

صوت تفجر في فرارة نفسي الثكلى : عراق
كالمدّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع الى العيون
الريح يصرخ بي : عراق
والموج يعول بي : عراق ، عراق ، ليس سوى
عراق
البحر اوسع ما يكون وأنت ابعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق .

الثاني : يمكن ايضا ان نصل الى معرفة (التفرد) الذاتي للاديب بشيء آخر تابع لما سبق ـ لطريقة استخدامه للغة ـ وذلك بمحاولة التعرف على طبيعة (التخيل) عنده ومصادره ، اي كيف يقيم بالعلاقات اللغوية (صوره) ، بحيث تكشف عن عناصر الشبه بين الاشياء التي لا صلة بينها في الواقع ، فيكشف عن خيال خصب خلاق يبدع من الفكرة والصورة تجربة (مكتملة) ، لذلك فان افكار الشاعر وصوره (الجزئية) يجب ان تتضافر وان تتلاحم لتخلق الصورة (العامة) للقصيدة في تمامها وكمالها ، ذلك ان الاديب قد يستخدم بعض عناصر الخيال المفردة بحيث تبدو كل منها حية نابضة في نفسها ، الا انها تكون في (مجموعها) صورة مشوهة او غير متلاحمة .

ومن يتأمل قصيدة السياب (غريب على الخليج) يجد ان العنوان يضع يدي المتأمل على مصادر الخيال عنده ـ التي تبدو كما لو كانت نتيجة منطقية لموضوعها ، اذ يدور الخيال ـ في مجمله ـ حول ما يشير اليه العنوان من معاني : الغربة ، والمياه ، والخليج . والمقطع الاول من القصيدة يعبر عن صدق هذه المقولة :

الريح تلهث بالهجيرة كالجثام على الاصيل
وعلى القلوع تظل تطوي او تنشر للرحيل
زحم الخليج بهن مكتدحون جوّابو بحار
من كل حاف نصف عاري
وعلى الرمال على الخليج
جلس الغريب يسرح البصر المحيّر في الخليج

ونستطيع بصفة عامة القول بان الخيال عند السياب عامة ـ وفي هذه القصيدة خاصة ـ خيال (تركيبي درامي) اذ هو لا يكتفي بتشبيه واحد في الصورة ، وانما نحس ان الصورة عنده ثرية الخيال فيها حركة وحياة . قد يختلف قراء السياب في تأويل الرمز عنده او فهم الصورة ، ولكن الاحساس الصادق بحيوية الخيال وصدقه يبقى سمة مميزة لفن السياب .

شيء اخر نشير اليه ـ في هذا الموضوع ـ هو ان الوزن الموسيقي في القصيدة خاضع للمعنى الذي قصد اليه الشاعر وللصور الفنية المختلفة التي يتطلبها الفكر والاحساس في مضمونه . بهذا كله تظل للشعر الغنائي قوته ما دام يقدم لنا من خلال صوته الخاص رؤية واعية بمحاور الصراع الحقيقي للانسان والفن المعبر عنه .

المرحلة الرابعة :

نابعة من ايمان بأن الادب له دور في بناء المجتمعات والبشر.ان الادب نشاط انساني يسهم في حركة المجتمع وتقدمه ، من هنا لا يكتب للتسلية والترفيه او للمتعة والتطهير ، وانما من اجل ان يبرز ـ بالدرجة الاولى ـ (رؤية) خاصة للاديب ، وان يحدد (موقفا) يلتزم به .

لقد اصبحت (السلبية) امرا مرفوضا في الحياة ، وبالتالي في الفن المعبر عنها : ابداعا وتذوقا . ان المتذوق للادب عليه ان يجهد نفسه لا لمعرفة التجربة الادبية وفهمها فحسب ، بل عليه ان يحاول ان (يبصر) ماذا يريد الاديب ان يقول ـ بالفن ـ . ان القارىء مطالب ـ فيما نرى ـ الا يجادل النص(جماليا)فحسب ، بل (فكريا) أيضا ، من حيث خصوصية التجربة التي يتلقاها والموقف الفكري الذي تفصح عنه ، بحيث يتخذ هو الاخر من التجربة موقفا فيحكم لها او عليها . وهنا يصبح الفن بجوار ما له من (خاصية فنية) ومتعة جمالية وسيلة بناء وطلقة تحرير وطريقا للتخلص من كل ما يؤدي الى غربة الانسان من اجل الانسان اسعد وحياة افضل .

على هذا النحو فيما ارى ـ باختصار ـ يصبح التذوق الفني للادب عملية منضبطة ،تساعد على تحديد اسس دراسة النص وتذوقه . وهذه المنهجية في التذوق تساعد كثيرا في (ضبط) المنهج النقدي لفهم الادب وتقييمه ومحاولة الاستفادة بما يقدمه من خبرات وتجارب تمكن القارىء من الوعي بذاته وبمجتمعه . .اي بما هو انساني فيه .

كلية الاداب ـ جامعة القاهرة

المراجع :

(١) أدب الفلاحين : جمع احمد شوقي عبدالحكيم
ط . القاهرة (الاولى) ـ ١٩٥٧ ـ دار النشر المتحدة ص ٧٩

(٢) العجوز والبحر : ارنست همنجواي ـ تعريب : صالح جودت
ط . القاهرة (د.ت.) ـ الدار القومية للطباعة والنشر ص ١١١

(٣) قصائد بدر شاكر السياب : جمع واختيار : ادونيس
ط . بيروت (الاولى) ـ ١٩٦٧ ـ دار الاداب ص ٧٤

(٤) ضرورة الفن : ارنست فيشر ـ ترجمة : اسعد حليم
ط . القاهرة (١٩٧١) ـ الهيئة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر ص ١٨٩ .